

تصحيح الأصول

سعيد الأفغاني

يقولون بدعة العصر في المئة الثانية لما بعدها ، وكلما أغرب الراوي كان أدل على سعة محفوظه ، وكان كثير منهم يسجل كل ما يسمع مهما تكن اللغة ضعيفة أو رديئة أو لغة قوم خالطوا أجانب ففسدت سلاقتهم فلم يعتد بكلامهم ، فكثر الوجوه في المسألة الواحدة من غير تمييز بين ما عليه أكثر العرب المحتج بهم وما انفرد به بعضهم ولم تقتصر القواعد المستنبطة من هذه الشواهد على الكوفيين ، بل تسربت الى كتب غيرهم حتى شاعت (مدرستها) الشبه الرسمية وأصبحتنا في حاجة الى دراسة عليية لهذه الشواهد تستتبع حذف كل قاعدة لا مؤيد لها الا الشاهد المصنوع أو المحرف أو النادر .

والمنهج السليم للقواعد ان تبني على الأكثر الأشيع من الفصح ، ومع أن الخليل بن أحمد رحمه الله وضع بها أوتي من ذهن رياضي منظم خطة قريبة التناول ، ان الذين أتوا من بعده انحرفوا كثيرا عن منهجه ، وحشروا

من كلام الجاحظ في نعت استاذہ ابراهيم بن سيار النظام قوله :

«كان ابراهيم مأمون اللسان ، قليل الزلل والزيغ في باب الصدق والكذب . . . وانما كان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على المعارض والخاطر السابق الذي لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الاصل الذي قاس عليه كان امره على الخلاص . ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى ان بدء امره كان ظنا (1) .

ونحن إذا وضعنا (الشواهد غير المحررة) مكان كلمة (الظن) الواردة في نعت الجاحظ لاستاذہ صدق الحكم كل الصدق على عدد غير قليل من القواعد النحوية . ولا يرد على هذا ان أكثر الروايات الضعيفة والمحررة التي بنيت عليها هذه القواعد رواها كوفيون . وذلك لان التباهي بكثرة الرواية ونادرة المروي كان كما

(*) القى البحث في الجلسة السادسة لمؤتمر الدورة الاربعين لجمع اللغة العربية .
(1) يتابع الجاحظ صفة استاذہ قائلا : فاذا اتقن ذلك وأيقن جزم عليه وحكاه من صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ، ولكنه كان لا يقول (سمعت) ولا (رأيت) ، وكان كلامه اذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع أنه انما حكى ذلك من سماع قد امتحنه أو عن معاينة بهرته -
الحيوان 2 - 83 .

في بحوثهم ما قرب وما بعد ، ما صح وما لم يصح ،
ارادة المكاثرة والمفاخرة في العلم .

قال رجل للخليل : « اخبرني عما وضعت مما
سميت عربية : ايدخل فيه كلام العرب كله ؟ » فقال :
« لا » : فقال : « كيف تصنع فيها خالفتك فيه العرب
وهم حجة ؟ » فقال : « احمل على الاكثر واسمى ما
خالفني لفات » .

وعلى تصور هذه الخطة شيئا ما كان الخير في
اتباعها وتعاهدتها بالاحكام مع الزمن ، فمنهاج قريب
يتبع بأمانة واصلاح خير من سير على غير منهاج ، وهذا
ما لم يكن — مع الاسف — لسبيين على الاقل .

1 — الاول انهم لم يدرسوا الرواة واحوالهم ومن
منهم الثقة الضابط ، ومن الوضاع والمخلط دراسة
كافية ، فلا منهج عن طبقات رواة اللغة بقدر ما عرفنا
عن طبقات المحدثين ، ولا حظي من الرواية اللغوية
ببعض ما حظى به من رواية الحديث ، ومع ان بعضهم
حاول تقليد المحدثين في الجرح والتعديل فكان ينص في
ترجمة الخليل وابى عمرو بن العلاء مثلا على امانتهما
وينص في ترجمة قطرب بما يشعر بكذبه ، ويشير الى
تزيد — في زعمه — عند الاصمعي ان صنيعهم اشبه
بمحاكاة ابتدائية لا علمية فيها .

2 — والثاني انهم لم يحققوا كثيرا من النصوص
التي بنوا عليها ، لا سندا ولا متنا ، اما السند فكترا
ما تجد الشاهد في كتبهم منسوبا الى غير قائله او الى
مجهول ، مكتفين بـ (قال الشاعر) ، واما المتن
فقد تجده مرويا على غير الصحيح ويبنون قاعدتهم على
موضع الخطأ منه . وكان عليهم ان يقتصوا الروايات
المختلفة في مظانها ، ويحققوها متحررين صحيحها من
زائفها ، واذا استطيعسون الاطمئنان الى ما يبنون عليها
من قواعد (1) .

وحسبي ان اذكر مثالا لا يغيب عن علمكم ويكون
سبيلا الى استحضار امثاله ، ولم اخص بالذكر الا لانه
كان اول ما لفت نظري بعنف منذ خمس وعشرين سنة (2)
وانا اقوم بتدريس كتاب « مغنى اللبيب » في الجامعة
السورية بدمشق :

مما تناقله مؤلفون في النحو عصرا بعد عصر ، زعم
بان من شأن « ان » الناصبة للمضارع ان تجزئها ايضا :
ومن شأنها ان تزداد بعد « كي » . . حتى وجد ابن مالك
في المثة السابعة (— 672 هـ) من الضرورة ان يقول
في كتابه الموجز (التسهيل) : ولا يجزم بها خلافا لبعض
الكوفيين « ويتبع ابن مالك في هذا ولده المشهور بابن
المصنف . ثم يجيء في المثة الثامنة ابو حيان فيشرح كتاب
(التسهيل) هذا ويعتقب على عبارة ابن مالك الانفة
بنقل غريب جدا هو قول الرؤاسي الكوفي (— نحو
190 هـ) :

« فصحاء العرب ينصبون بـ (ان) واخواتها
الفعل ، ودونهم قوم يرفعون بها ، ودونهم قوم
يجزئون بها » .

ثم يدلي برأيه المشروط : (اذا كان قد حكى الجزم
بها الكوفيون ، ومن البصريين اللحياني وابو عبيدة ،
كان الاصح جواز ذلك لكنه قليل (3) . فانتهي
الى مخالفة ابن مالك صاحب التسهيل الذي تصدى
لشرحه . واترك بيان شكى بل نفى القاطع لصحة قول
الرؤاسي الآن .

3 — ثم يأتي ابن هشام (— 761 هـ) فيذكر في
احكام (ان) الناصبة للمضارع ان بعض الكوفيين واما
عبيدة يزعمون ان بعض العرب يجزم بها المضارع
« ونقله اللحياني عن بعض بني صباح من ضبة (4) »
وانشدوا عليه قول امرئ القيس :

(1) ص 72 من كتابي في اصول النحو فما بعد — الطبعة الثالثة .

(2) انظر مقدمة المصدر السابق .

(3) شرح أبيات مغنى اللبيب لعبد القادر البغدادي 1 / 131 — 132 طبعة دمشق 1393 هـ 1973 م .

(4) مغنى اللبيب ص 27 (طبعة دار الفكر في بيروت سنة 1969) والرواية في الديوان :

(اذا ما ركبنا) . هذا و (صباح) بضم الصاد وتخفيف الباء ، وما ذكره الدماميني في شرحه لمغنى
اللبيب من فتح الصاد وتشديد الباء وتبعه عليه سائر الشراح فليس بوجود في أسماء البطون والقبائل .
انظر شرح أبيات مغنى اللبيب للبغدادي 1 — 130 طبعة دمشق 1393 هـ .

إذا ما غدونا قال ولدان أهلنا
تعالوا الى أن يأتنا الصيد نحطب

وقول جميل بثينة :

احاذر أن تعلم بها فتردها
فتتركها ثقلاً عليّ كما هيا

وعلق ابن هشام على بيت جميل بقوله : « وفي هذا نظر ، لأن عطف المنسوب عليه يدل على أنه ممكن للضرورة لا للجزم » (1) . وكنا نحب من ابن هشام رحمه الله غير هذا ، لكن اهتمام القوم بالنحو الصناعي وتخريج الروايات أغفلهم عن الأحق بالاهتمام وهو تصحيح الشاهد قبل تخريجه أو البناء عليه .

4 - وبعد نحو من مئتي سنة الف السيوطي شرحه لشواهد (مغنى اللبيب) فلم يعجبه تخريج ابن هشام لهذا البيت بالضرورة الشعرية وغاص غائصاً ثم طلع علينا وفي يده تخريج غريب أنجده به علم القراءات ، فقال بعد ملاحظته أن تجاوز الميم والباء في البيت يشبه ما ورد في قراءة لاية فيقول :

« انشد الكوفيون ، واستشهد به المصنف على الجزم بـ (أن) ، وقد خرج على أن سكونه لاجل الادغام الجائز في الكلام كما قرأ أبو عمرو بن العلاء في : يحكم بينكم » ونحوه . . » وبعد هذا الكلام ختم السيوطي بما كان يجب أن يبدأ به وهو قوله : « ثم رأيت البيت في ديوان جميل وفيه تغيير (ا) . . . »

الا طال كتمانى بثينة حاجة
من الحاج ما تدرى بثينة ما هيا
أخاف إذا أتيتها أن تضعيها
فتتركها ثقلاً عليّ كما هيا

ونلاحظ أن حكايته عن ابن هشام غير دقيقة : فلم يستشهد ابن هشام بهذا البيت ، بل نقل انشاده غيره ، ونفى في تعليقه أن يكون في البيت جزم ، بل هو إسكان للضرورة .

5 - وبعد وفاة السيوطي بنحو من مئتي سنة

أيضا الف عبد القادر البغدادي (1030 - 1093 هـ)
شرحا لآبيات مغنى اللبيب أيضا فلم يزد على أن نقل
كلام أبي حيان الذي مر بك من شرحه لتسهيل .

أقول : أما شاهدهم الاول على زعم الجزم بـ
(أن) فنقول امرئ القيس في روايتهم :

إذا ما غدونا قال ولدان أهلنا
تعالوا الى أن يأتنا الصيد نحطب

نقد قال السيوطي في شرح شواهد : (ا) أورده المصنف مستشهدا (2) به على أن (أن) قد تجزم المضارع ، وقد انكر ذلك الفارسي وقال : « الرواية : (الى أن يأتي) » ، وكذا أورده صاحب (منتهى الطلب) . وكان بحسب السيوطي هذا فهو كاف بالغ ، لكنه عقب عليه بسرده الرواية الضعيفة والتكلف غير الموفق في تخريجها قال :

« وأورده ابن الانباري في شرح المفضليات بلفظ (الى ما يأتنا الصيد) وقال : يجوز أن تجعل (تعالوا) مكتفية ، وتكمل (ما) شرطا والفعل مجزوما بها (ونحطب) جوابها (3) وفي هذا السرد خروج على الطريقة المرضية في التأليف . إذ في إثبات الرواية الصحيحة مندوحة عن ختم الكلام بالرواية الخطأ ثم تخريجها حتى يتوهم غير المتمكن قوتها ، فان كان هذا قد يقبل - على تردد - عند بعض الجعّاعين فهو مردود عند المؤلفين المصنفين .

ولقد كان عبد القادر البغدادي الذي أتى بعد السيوطي بمئتي سنة أكثر توفيقا وأسدّ نهجا ، فقد عزا هذه الرواية الضعيفة الى صاحبها وذكر انكار الفارسي لها بالنص والملة ، وسند القراءة السليمة للبيت معزوة الى الثقة الخبير قال :

وقال أبو على الفارسي في « المسائل البصرية » :
انشد الفراء هذا البيت :

إذا ما خرجنا قال ولدان أهلنا
تعالوا الى أن يأتنا الصيد نحطب

(1) شرح شواهد المغنى للسيوطي ص 36 - المطبعة البهية . والآية من سورة النساء 4 - 141 .
(2) عرفت قبل أسطر أن المصنف لم يستشهد به .
(3) شرح شواهد المغنى للسيوطي ص 35 .

يكون دولة « (4) اذا قدرت اللام قبلها ، فان لم تقدر
فهي تعليلية جارة ، ويجب حينئذ اضمار (أن) بعدها ،
ومثله في الاحتمالين قوله :

أردت لكيما أن تطير بقريتي ..

فـ (كي) اما تعليلية مؤكدة للام ، واما مصدرية
مؤكدة بـ (أن) ، ولا تظهر (أن) بـمـد (كي) الا في
الضرورة كقوله :

فقلت اكل الناس أصبحت ماتحا

لسانك كيما أن تغر وتخدما

وعن الاخفش : « أن (كي) جارة دائما ، وان
النصب بعدها بـ (أن) ظاهرة أو مضمرة ، ويرده
نحو « لكيلا تأسوا » فان زعم أن (كي) تأكيد للام كقوله :

ولا للما بهم أبدا دواء

رد بأن الفصيح المقيس لا يخرج على الشاذ « اهـ
والمستعان الله .

وقد أتى السابقون رحمهم الله في تردهم في (كي)
بين المصدرية والتعليل من قلة توقفهم عند النصوص
الصحيحة ، بل من تسويتهم بين الصحيح الفصيح ،
والمتهاون المحرف ، فمال بعضهم الى هذا تارة وإلى
ذاك تارة ، ولو نقدوا النصوص فمأزوا صحيحها وطرحوا
زائنها لم يبق بين أيديهم إلا مصدرية كي ، فاما التعليل
السابق الى الذهن كلما فكرت فمن اللام التي تصاحبها
كثيرا وتبقى معناها عليها ولو حذفت لفظا بحيث ساغ
التعبير أنها مصحوبة بها دائما لفظا أو تقديرا . ولقد
أغرب الاخفش جدا حين جعلها تعليلية جارة فقط .
وحسبك في وهي دفعهم اعتراض مجيء تعليلين متعاقبين
على قولهم في قوله تعالى « لكيلا تأسوا » استنجاذهم
برواية لبيت محرف (ولا للمابهم) (5) وكلنا يعرف أن
الحرف الذي لا يستقل بالنطق لا يكرر فلا يقال (تتالله)

وانشده أبو بكر عن الاصمعي احسب :

إذا ما غدونا قال ولدان أهلنا

تعالوا الى أن يأتى الصيد نحطب

وانشاد الفراء خطأ فاحش لانه جزم بـ (أن)

انتهى (1)

أما شأن (أن) الثاني الذي زعمه بعضهم فهو
زيادتها بعد زميلتها (كي) الناصبة للمضارع مطلقا ،
وجرهم الى هذا ، بيت متهاون مجهول الصانع ، وبيت
آخر محرف ، موضع احتجاجهم منه هو موضع التحريف
نفسه ، فالاول :

أردت لكيما أن تطير بقريتي

فتتركها شئنا ببيداء بلقع

والثاني قول جميل :

فقلت : اكل الناس أصبحت ماتحا

لسانك كيما أن تغر وتخدما

وحاروا في : أي الاداتين تعمل ؟ (أن) أم (كي)
فاختلفوا ، فاستجدوا صناعتهم فانجدت كلاهما عودته ،
وهاكم عرض ابن هشام نفسه لاصل القضية . ثم
أخلافهم في الشاهدين الآتين :

قرر ابن هشام أن من معاني (كي) : « أن تكون
بنزلة (أن) المصدرية معنى وعملا (2) وهذا حق لا
غبار عليه ، ولكنه قيد الحكم بنحو قوله تعالى : « لكيلا
تأسوا » (3) فكانه يريد أن يشير الى أن بعضهم جعلها
تعليلية بنزلة لام التعليل والنصب بعدها بـ (أن)
مقدرة وبعضهم جعلها مصدرية وحرف التعليل محذوف
جوازا ، وهو ما تؤيده النصوص والقياس ، ثم تابع
كلامه قائلا : « ويؤيده صحة حلول (أن) محلها ،
ولأنها لو كانت حرف تعليل لم يدخل عليها حرف تعليل :
ومن ذلك : جئت كي تكرمي ، وقوله تعالى : « كيلا

(1) شرح أبيات مغنى اللبيب للبغدادى 1 - 129 .

(2) مغنى اللبيب ص 199 طبعة دار الفكر في بيروت (1969) .

(3) سورة الحديد 57 - 23 .

(4) سورة الحشر 59 - 7 .

(5) كذا يرويه ثعلب من الكوفيين ، ولا صحة لذلك ، والبيت لمسلم بن معبد الاسدى وقد أورده صاحب منتهى
الطلب والسيوطي :

وما بهم من البلوى دواء

فلا والله لا يلقى لما بى

فلا شاهد اذا لما زعموا .

انظر شرح شواهد السيوطي ص 172 .

ولا (كتبت بيالقلم) لكن كتب النحو تناقلت (وللاهم) وكل هذا التخطيط سببه عدم الصبر عند الخطوة الاولى ، فالبيت الاول (اردت لكيما ان تطير بقريتي) مجهول الاصل يجب طرحه منذ البداية ، وبيت جميل محرف وموابه : لسانك هذا كي تغر وتخدعا .

فلا اصل لـ (كيما ان) البتة ، والسيوطي نفسه بعد ان اثبت التحريف واثبت القاعدة المبنية عليه اعترف فقال : ثم رايت البيت في ديوان جميل بلفظ (لسانك هذا كي تغر وتخدعا) فلا ضرورة فيه ، ونسأل اليوم : فلم — رحمك الله — لم تمح التحريف السابق والقاعدة المبنية عليه بعد ان عرفت الحق الصراح ؟

جمع بعضهم علما جما يبهرننا بفزارته ، ولكنه لم يثلث ليهرز المنخل هزاً جادا ، واذا لاستراح من كثير مما عني به نفسه وعني طلاب العلم من بعده ، من كثير كثير لا طائل تحته ، بل تحته كل الصوارف عن الوصول السريع الى الحق الواضح السهل .

انه لا تعليل ولا تخريج ولا قياس قبل تصحيح الاساس .

وبعد فهذا واحد من امثلة غير قليلة في كتاب واحد هو مغنى اللبيب . يضيق بها وينبه عليها كل من كتب الله له دراسة هذه الكنوز الثمينة وتدريسها باناسة ، فهل من هذا التثنت من خلاص ؟ وهل الى خروج من سبيل ؟

نعم انه عند عبارة النقد في تراثنا الحضاري : عند علماء الحديث . فتواعدهم في نقد الحديث وتحقيقه متبا وسندا خير ما وضع نقاد النصوص الى اليوم . واذكر ان كتابا لاستاذ تاريخ في الجامعة الامريكية في بيروت (1) حوّل إليّ قبل ثلاثين عاما لاكتب عنه .

كله من فاتحته الى خاتمته دعوة حارة بدعمة بالحجج تهيب بنقاد التاريخ ان يفيدوا من قواعد المحدثين في نقد النصوص التاريخية لما فيها من نهج علمي سديد ، وكان عنوان الكتاب ناماً على الدعوة اذ سماه صاحبه (مصطلح التاريخ) اقتداء به (مصطلح الحديث) .

ونحن — خدّمة هذه اللغة الكريمة — احق بهذا الخير ، فلنحاول الاستفادة من قواعد المحدثين في تحرير نصوصنا اللغوية ، وسيقودنا ذلك الى طرح نتوءات ودمامل وانتفاخات واوراما تعيث هنا وهناك في قواعدنا ، لتصبح ارشق قواما واجمل هنداما واقتوى احكاما وانسجاما ، واخرى ان تتمسقه الملكات المفتحة ويعرف الذين اطالوا الاستمتاع بتراثنا انه يجلو بعضه بعضا ويكمل بعضه بعضا ويحكم بعضه بعضا ، وقد بدأت فعلا علوم اللغة في نشأتها تقفو خطوات علوم الحديث فما الذي اوقفها في نصف الطريق ؟ ولو فعلنا بعض ما فعل المحدثون لعلمهم لم يكن في كتب نحونا اليوم (اجتماع كي وان) ولا الجزم — (ان) ولا امثالها . ولغاب عن انظارنا هذا التشويه في وجه اللغة .

ليس العلم بكثرة ما تجمع من هنا وهناك : ولكن العلم ان تخرج بحقيقة واضحة صادقة مما جمعت من هنا وهناك . فلا تبني على اساس واه . ولا (تقعد) او تقيس الا على الشاهد الصحيح الاصيل .

ولقد استفرغ علماؤنا . رحمهم الله جهودهم الخيرة . وان ما بقى علينا من جهد طفيف في نقد النصوص وتنسيق ما بنى عليها . سنقوم به على التمام متى احكنا الخطة وتحلينا بالصبر والاخلاص . وسنكون حتى في هذا مؤتمنين بهم مغيدين من فضلهم فقد تركوا لنا الكثير الطيب اناهم الله وجزاهم عن العلم واهله واللغة ومحبيها خير الجزاء .

(1) هو الفقيه الدكتور أسد رستم .